م - مراحل تطور التفسير :

أ - التفسير في عهد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم

سر الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم أول من فسر القرآن
لهذا يتميز المؤسس الأول لعلم التفسير كما أشرنا سلفاً
يتضح ذلك من عدة أمور فسر من خلالها النبي - صلى الله
ه وآله وسلم بأوجه :

القرآن

فضيل للمجمل : مثلاً قوله تعالى ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار
وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات
هود/ ١١٤

ن بين ذلك النبي - صلى الله عليه وآله وسلم بقوله (صلوا
كما رأيتموني أصلي)

ثال آخر - قوله تعالى ﴿ولله على الناس حج البيت من
طاع إليه سبيلاً ...﴾

آل عمران/ ٩٧

بين ذلك الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم بقوله (خذوا
عني مناسككم)

يده للمطلق : مثلاً قوله تعالى ﴿حرمت عليكم أمهاتكم
تكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت
هاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة ...﴾

النساء/ ٢٣

- صلى الله عليه وآله وسلم (يحرم من الرضاع ما
يحرم من النسب)

تكريم الله للإنسان: بدأ الله الإنسان بسجوده وتعالى بأنه
بوصية الوالدين بالإحسان والإحسان وقوله
تعالى: {يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل
حظ الأنثيين} النساء/١١

قال صلى الله عليه وآله وسلم: (ليس للقاتل من الميراث
شيء)
يعني الذي يقتل أحد أبويه

تعريف اللغوي: مأخوذ من التأبين وهو المدح

المدح الساخن: الكون الساجد وهو الذي يمدح بالمعروف
والشاكر هو الذي يشكر والحامد هو الذي يحمد الله وبشر المؤمنين
التوبة/١١٢

فقد فسر النبي صلى الله عليه وآله وسلم (السائحون) بقوله
(السائحون الصائمون)

توضيح للشكل: مأخوذ من قوله تعالى {وكلوا واشربوا
حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر}
البقرة/١٨٧

قال صلى الله عليه وآله وسلم [هما سواد الليل وبياض النهار]

تعريف البيان: مأخوذ من قوله تعالى {كأمثال اللؤلؤ المكنون}
الواقعة/٢٣

قال صلى الله عليه وآله وسلم (هم أبناء فارس الذين
كانت لآبائهم)

٨- مراحل تطور التفسير:

أ- التفسير في عهد الصحابة - رضي الله عنهم.

من الطبيعي أن يفهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم القرآن
جملة وتفصيلاً بعد أن تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان بقوله
تعالى: ﴿إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه *
ثم إن علينا بيانه﴾ القيامة/١٧-١٩

وكان طبيعياً أن يفهم أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم
القرآن جملة، أي: بالنسبة لظاهره وإجماله، أما فهمه
تفصيلاً ومعرفة دقائق باطنه بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا
واردة فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن
بد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبي - صلى الله
وآله وسلم فيما يشكل عليهم فهمه، وذلك لأن القرآن
المجمل والمشكل والمتشابه وغير ذلك مما لا بد من معرفة
أمور أخرى يُرجع إليها، ولو رجعنا إلى عهد الصحابة
نجد أنهم لم يكونوا على درجة واحدة بالنسبة لفهم معاني
القرآن بل تفاوتت مراتبهم، واشكل على بعضهم ما فهم لبعضهم

والسبب في تفاوت الصحابة في فهم القرآن يرجع لعدة

سبابه هي:

- تفاوتهم في القوة العقلية
- تفاوتهم في معرفة ما احاط بالقرآن من ظروف وملابسات
- كانوا الديتساوون في معرفة المعاني التي وضعت لها المفردات
- توتهم في اللغة العربية واحاطتهم بمناحيها واساليبها
- م حرج بعضهم من الاجتهاد
- حاطتهم للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم مكنتهم من معرفة
- وادث التي نزلت فيها آيات القرآن.

لمشرون من الصحابة - رضا -

- لفاء الاربعة
- وجات النبي
- ن بيت النبي
- بيد بن ثابت
- و موسى الاشعري
- لبن بن عبد الله

وغيرهم

هر المشرين من الصحابة

- ي بن ابي طالب - عليه السلام
- عبد الله بن عباس - رضا -
- عبد الله بن مسعود - رضا -
- ي بن كعب - رضا -

ي شهرة هؤلاء - حاطتهم للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم مكنتهم من معرفة الحوادث
- التي نزلت فيها آيات القرآن

القرآن الكريم

النبي صلى الله عليه وآله وسلم

الاجتهاد وقوة الاستنباط

العقل والتفكر في الكون والطبيعة

↓

تفصيل تلك المصادر

القرآن الكريم

القرآن الكريم محور الفكر ومنبع العلم والمعرفة والتشريع والحكم
وأساس النظم والحضارة وعليه أساس يبني المسلمون فكرهم وعقائدهم وثقافتهم وعلومهم ومعارفهم في الفقه والتشريع والعقيدة والفلسفة والأخلاق والأدب وشتى فنون المعرفة والفكر والثقافة.

فكان لابد لنا من التعرف لتفسير كتاب الله تعالى الذي يمثل القرآن أولاً فيرجع ما كتب عنه من قبل العلماء

في هذه الفتنة أن أرهص بيهوديّته بأنّ الخلافة بعد عثمان ستكون لمعاوية.

فقد روى وكيع عن الأعمش عن أبي صالح: أنّ الحادي كان يحدو بعثمان يقول:

إنّ الأمـــير بـــعده عـلـيٌّ و في الزبير خلق رضـيٌّ[1]

فقال كعب: بل هو صاحب البغلة الشهباء -يعني معاوية- وكان يراه يركب بغلة، فبلغ ذلك معاوية فأتاه، فقال: يا أبا إسحاق ما تقول هذا؟ و هاهنا عليّ و الزبير و أصحاب محمّد! قال: أنت صاحبها -لعلّه أردف ذلك بقوله: إنّي وجدت ذلك في التوراة- كما هي عادته.

و قدّر معاوية هذه اليد الجليلة لكعب، و أخذ يغمره بإفضاله.

و قد عُرف من تاريخ هذا الكاهن أنّه تحوّل إلى الشام في عهد عثمان، و عاش تحت كنف معاوية، فاستصفاه معاوية لنفسه و جعله من خلصائه، لكي يروي من أكاذيبه و إسرائيليّاته ما شاء أن يروي في قصصه؛ لتأييده، و تثبيت قوائم دولته.

و قد ذكر ابن حجر العسقلانيّ بأنّ معاوية هو الذي أمر كعباً بأن يقصّ في الشام[2]. و هو الذي بثّ أحاديث تفضيل الشام و أهلها، سواء بنفسه أو على يد تلامذته.

أقسام الوضّاعين

قسّم ابن الجوزيّ الرواة الذين وقع في حديثهم الموضوع و الكذب و المقلوب إلى خمسة أقسام:

القسم الأوّل: قوم غلب عليهم الزهد و التقشّف، فتغفّلوا عن الحفظ و التمييز. و منهم من ضاعت كتبه أو احترقت أو دفنها، ثمّ حدّث من حفظه فغلط. فهؤلاء تارة يرفعون المرسل، و تارة يسندون الموقوف، و تارة يقلبون الإسناد، و تارة يدخلون حديثاً في حديث.

---

١. النزاع و التخاصم فيما بين بني أميّة و بني هاشم للمقريزيّ، ص٥١.

٢. الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر، ج٣، ص٣١٦؛ راجع: أضواء على السنّة المحمّديّة، ص١٧٩-١٨١.

و القسم الثاني: قوم لم يعانوا على النقل، فكثر خطاؤهم و فحش، على نحو
للقسم الأوّل.

و القسم الثالث: قوم ثقات لكنّهم اختلطت عقولهم في آخر أعمارهم، فحدّث
الرواية.

و القسم الرابع: قوم متغفّلون، فمنهم من كان يُلقّن فيتلقّن، و منهم من يروي
فيظنّ أنّه سمعه و لم يسمعه، أو يظنّ جواز إسناد ما لم يسمع. و قد قيل لبعضهم
الصحيفة سماعك؟ فقال: لا، و لكن مات الذي رواها فرويتها مكانه. و منهم من كا
أولاده يضع له الحديث، فيدوّن و لا يعلم.

و القسم الخامس: قوم تعمّدوا الكذب، و هؤلاء على ثلاثة أصناف:

الصنف الأوّل: قوم رووا الخطأ من غير أن يعلموا أنّه خطأ. فلمّا عرفوا وجه الـ
أنفوا أن يرجعوا، فأصرّوا على خطائهم، أنفة أن ينسبوا إلى غلط.

و الصنف الثاني: قوم رووا عن كذّابين و عن ضعفاء يعلمونهم، لكنّهم دلّسـ
أسمائهم. فالكذب من أولئك المجروحين، و الخطأ القبيح من هؤلاء المدلّسين.

و الصنف الثالث: قوم تعمّدوا الكذب الصريح.

و هؤلاء، منهم الزنادقة، وضعوا الحديث قصداً إلى إفساد الشريعة، و إيقاع الشـ
قلوب العامّة. والتلاعب بالدين، أمثال: ابن أبي العوجاء وضع أربعة آلاف حديث و
ممّن وضعوا كمّيّات كبيرة، أحلّوا بها الحرام و حرّموا بها الحلال.

و منهم، أصحاب العصبيّة الجاهلة، كانوا يضعون الحديث نصرة لمذهبهم، و س
الشيطان أنّ ذلك جائز.

و منهم، أهل التصوّف والتقشّف، وضعوا الحديث في الترغيب و الترهيب، لي
الناس -بزعمهم- على فعل الخير و ترك الشرّ، و هذا تغاطٍ على الشريعة، و مضمون
أنّ الشريعة ناقصة تحتاج إلى تتمّة فقد أتمّوها.

و منهم، قوم استجازوا وضع الأسانيد لكلّ كلام حسن، فقد حدّث محمّد بن خـ

أبيه قال: سمعت محمّد بن سعيد يقول: لا بأس إذا كان الكلام حسناً أن تضع له إسناداً.

و منهم قوم وضعوا الحديث تزلّفاً إلى سلطان أو نيلاً إلى نوال، كما وضع غياث بن إبراهيم حديث «لا سبق إلّا في نصل أو خفّ أو حافر أو جناح» تزلّفاً إلى المهديّ، و كان يحبّ الحمام.

و منهم من كان يضع الحديث جواباً لسائليه ليُحظى منزلة رفيعة لديه.

و منهم من كان يضع الحديث لقدح أو مدح في أُناس لأغراض مختلفة، كالأحاديث الموضوعة في قدح و مدح الشافعيّ و أبي حنيفة.

و منهم من كان يضع الغريب من الحديث، استجلاباً لأنظار العامّة، كما كان يفعله القُصّاص؛ و معظم البلاء منهم يجري، لأنّهم يزيدون أحاديث تثقف و ترقّق، و الصحاح يقلّ فيها هذا. لا جرم كان القُصّاص شديدي النعير ساقطي الجاه، لا التفات إليهم، ليست لهم دنيا و لا آخرة.

و من هؤلاء القُصّاص شحّاذون، يضعون الحديث و يسندونه إلى من شاؤوا، و لا سيّما من كان معروفاً لدى العامّة بالجاه و القبول.

قال جعفر بن محمّد الطيالسيّ: صلّي أحمد بن حنبل و يحيى بن معين في مسجد الرصافة. فقام بين أيديهم قَصّاص، فقال: حدّثنا أحمد بن حنبل و يحيى بن معين، قالا: حدّثنا عبد الرزّاق عن معمر عن قتادة عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال: لا إله إلّا الله، خلق الله كلّ كلمة منها طيراً منقاره من ذهب و ريشه من مرجان ...» و أخذ في قصّة نحو عشرين ورقة. فجعل أحمد ينظر إلى يحيى، و يحيى ينظر إلى أحمد، فقال له: أنت حدّثته بهذا؟ فقال: والله ما سمعت بهذا إلّا الساعة، فلمّا فرغ من قصصه و أخذ القطيعات، ثمّ قعد ينتظر بقيّتها، أشار إليه يحيى بيده أن تعال، فجاء متوهّماً النوال. فقال له يحيى: من حدّثك بهذا الحديث؟ فقال: أحمد بن حنبل و يحيى بن معين. فقال: أنا يحيى و هذا أحمد، ما سمعنا بهذا قطّ في حديث رسول الله ﷺ فإن كان لا بدّ و الكذب فعلى غيرنا! فقال له: أنت يحيى بن معين؟ قال: نعم.

فتلقاه عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية و لا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك، إلا أنهم بعُدَ صيتهم و عظمت أقدارهم، لما كانوا عليه من المقامات في الدين و الملة، وقعت بالقبول من يومئذ[1].

هل يجوز مراجعة أهل الكتاب؟

و هل هناك ما يبرّر مراجعة أهل الكتاب؟

زعم الكثير من الكتّاب المتأخّرين - تبريراً لمواقف لفيف من الصحابة الذين صمدوا على الرجوع إليهم، و لا سيّما مسلمة أهل الكتاب - أنّ هناك دلائل على الجواز، إنما في زمن متأخّر عن المنع الذي كان في ابتداء الأمر، أو في شؤون لا تمسّ أحكام الشريعة في مثل القصص و التواريخ، أو فيما لم تمسّه يد التحريف و قد توافق مع ما جاء به القرآن الكريم، أو نحو ذلك.

هذا ابن تيميّة يذكر عن السدّيّ الكبير (هو أبو محمّد إسماعيل بن عبد الرحمان الكوفيّ توفّي سنة ١٢٧ هـ.) أنّه كان في بعض الأحيان ينقل ما يُحكى من أقاويل أهل الكتاب، التي أباحها - فيما زعم - رسول الله ﷺ حيث قال: بلّغوا عنّي و لو آية، و حدّثوا عن بني إسرائيل و لا حرج، و من كذب عليّ متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار[2]، رواه البخاريّ عن عبد الله بن عمرو بن العاص. و لهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين[3] من كتب أهل الكتاب، فكان يحدّث منهما، بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك[4].

قال: و لكن هذه الأحاديث الإسرائيليّةُ تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد، فإنّها على ثلاثة أقسام:

---

[1] مقدّمة لابن خلدون، ص ٤٣٩ - ٤٤٠، آخر الفصل الخامس فيما ذكره بشأن التفسير.

[2] رواه البخاريّ في باب ما ذكر عن بني إسرائيل من كتاب الأنبياء، ج ٤، ص ٢٠٧.

[3] الزاملة: هي المِلْفَة، و ربّما كانت حمل بعير، و قد فسّر أبو شهبة الزاملتين بحملَ بعيرين (الإسرائيليات والموضوعات، ص ٩٢ و ٥٤).

[4] سيأتي على تفسير هذا الحديث بغير ما فهمه هؤلاء.

أحدها: ما علمنا صحّته ممّا بأيدينا ممّا يشهد له بالصدق.

و الثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا ممّا يخالفه.

و الثالث: ما هو مسكوت عنه، لا من هذا القبيل و لا من هذا القبيل، فلا نؤ
و لا نكذّبه، و تجوز حكايته، لما تقدّم[١]. و غالب ذلك ممّا لا فائدة فيه تعود إلى أ
و لهذا اختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا كثيراً، في مثل أسماء أهل الكهف و
الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، ممّا لا فائدة في تعيينه تعود على المكلّفين في
و دينهم. و لكن نقل الخلاف عنهم في ذلك جائز[٢].

و يستدلّ الذهبيّ لجواز مراجعة أهل الكتاب و النقل عنهم فيما لا يخالف ال
آيات، زعم دلالتها على إباحة الرجوع إليهم، قال:

و إذا نحن نظرنا في القرآن الكريم، وجدنا من آياته البيّنات ما يدعو نبيّ الإ
جماعة المسلمين إلى أن يرجعوا إلى علماء أهل الكتاب من اليهود و النص
سألوهم عن بعض الحقائق التي جاءت في كتبهم، و جاء بها الإسلام فأنكر
أغفلوها، ليقيم عليهم الحجّة، و لعلّهم يهتدون.

و من هذه الآيات الدالّة على إباحة رجوع النبيّ ﷺ و من تبع دينه من المسلمي
ل الكتاب قوله تعالى: «فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِمّا أَنزَلنا إِلَيكَ فَاسأَلِ الَّذينَ يَقرَأونَ الكِتا
كَ لَقَد جاءَكَ الحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلا تَكونَنَّ مِنَ المُمتَرينَ»[٣]، و قوله: «فَاسأَلوا أَهلَ الذِّ
لا تَعلَمونَ»[٤]، و قوله: «وَ اسأَل مَن أَرسَلنا مِن قَبلِكَ مِن رُسُلِنا»[٥]. قال: و معناه: و
م و علماء دينهم. قال الفرّاء مبيّناً وجه المجاز في الآية: هم إنّما يخبرونه عن
ل، فإذا سألهم فكأنّه سأل الأنبياء عليهم السلام، و قوله: «وَ اسأَلهُم عَنِ القَريَةِ الَّتي ك

عدم تصديقهم و لا تكذيبهم فيما يحكونه. ذكر ذلك في ص١٩ من رسالته.
ة في أُصول التفسير، ص٤٥-٤٦، (المطبعة السلفيّة)؛ راجع: تفسير ابن كثير (المقدّمة)، ج١، ص٤
ل (١٠): ٩٤.

حاضِرَةَ البَحرِ»، و قوله: «فَاسأَل بَني إسرائيلَ»، و قوله: «سَل بَني إسرائيلَ كَم آتَيناهُم مِن آيَةٍ بَيِّنَةٍ»[1].

قال: كلّ ما تقدّم من أمر الله لنبيّه ﷺ بسؤال أهل الكتاب، يدلّ على جواز الرجوع إليهم، و لكن لا في كلّ شيء، بل فيما لم تصل له يد التحريف و التبديل من الحقائق التي تصدّق القرآن و تلزم المعاندين منهم و من غيرهم الحجّة[2].

قال: و على هذا فما جاء موافقاً لما في شرعنا تجوز روايته، و عليه تحمل الآيات الدالّة على إباحة الرجوع إلى أهل الكتاب، و عليه أيضاً يُحمل قوله ﷺ: «حدّثوا عن بني إسرائيل و لا حرج»؛ إذ المعنى: حدّثوا عنهم بما تعلمون صدقه.

و أمّا ما جاء مخالفاً لما في شرعنا أو كان لا يصدّقه العقل، فلا تجوز روايته؛ لأنّ حديث الإباحة لا يتناول ما كان كذباً. و أمّا ما سكت عنه شرعنا، و لم يكن ما يشهد لصدقه و لا لكذبه و كان محتملاً، فحكمه أن نتوقّف في قبوله فلا نصدّقه و لا نكذّبه؛ وعلى هذا يُحمل قول النبيّ ﷺ: «لا تصدّقوا أهل الكتاب و لا تكذّبوهم». أمّا روايته فجائز على أنّها مجرّد حكاية لما عندهم؛ لأنّها تدخل في عموم الإباحة المفهومة، من قوله ﷺ: «حدّثوا عن بني إسرائيل و لا حرج»[3].

و أضاف قائلاً: ما ثبت من أنّ بعض الصحابة كأبي هريرة و ابن عبّاس، كانوا يراجعون بعض من أسلم من أهل الكتاب، يسألونهم عمّا في كتبهم، و ما روي من أنّ عبد الله بن عمرو بن العاص أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب فكان يحدّث منهما، لا يعارض ما رواه البخاريّ من إنكار ابن عبّاس على من يسأل أهل الكتاب.

و لا ما رواه عبد الرزّاق في مسنده عن ابن مسعود من نهيه عن سؤال أهل الكتاب بقوله: «لا تسألوا أهل الكتاب، فإنّهم لن يهدوكم و قد أضلّوا أنفسهم».

و لا ما رواه أحمد من إنكار الرسول ﷺ على عمر لمّا أتاه بكتاب أصابه من بعض

---

١. الإسرائيليّات في التفسير والحديث، الذهبيّ، ص ٦٠-٦١؛ الأعراف(٧):١٦٣؛ الإسراء(١٧):١٠١؛ البقرة(٢):٢١١.
٢. المصدر نفسه، ص ٦٣.
٣. المصدر نفسه، ص ٦٤-٦٥.

أهل الكتاب بقوله: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطّاب»!

قال: «نعم لا تعارُض بين هذا و ذاك؛ لأنّ صحابة الرسول ﷺ كانوا أعرف الناس بأمور دينهم، و كان لهم منهج سديد و معيار دقيق في قبول ما يُلقى إليهم من الإسرائيليّات، ما كانوا يرجعون إليهم في كلّ شيء، و إنّما كانوا يرجعون إليهم في بعض جزئيّات الحوادث و الأخبار.

قال: أمّا إنكار الرسول ﷺ و إنكار الصحابة على من كان يرجع إليهم، فقد كان مبدأ الإسلام و قبل استقرار الأحكام، مخافة التشويش على عقائدهم و أفكارهم.

قال ابن حجر: «و كأنّ النهي وقع قبل استقرار الأحكام الإسلاميّة و القواعد الدينيّة خشية الفتنة. ثمّ لمّا زال المحذور وقع الإذن في ذلك، لما في سماع الأخبار التي كانت في زمانهم من الاعتبار»[٢].

مناقشة دلائل الجواز

غير أنّ هذه الدلائل غير وافية بإثبات المطلوب، و لا هي تُبرّر مراجعة أهل الكتاب في شيء من تفسير القرآن الحكيم أو تاريخ الأنبياء عليهم السلام.

ذلك لأنّ اليهود الذين جاوروا العرب كانوا أهل بادية مثلهم -كما قال ابن خلدون- لا علم لهم و لا تحقيق بمعرفة الصحيح من الأخبار، سوى ما شاع لديهم من أخبار عن الأمم ممّا لا يمكن الوثوق بها. أمّا علماؤهم فكانوا أهلَ دجلٍ و تزوير، كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم -كما حكى عنهم القرآن- و يزوّرون الحديث و يقولون: هذا من عند الله، و ما هو من عند الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً، بُغيه حطام الدنيا الرديلة.

و من ثَمَّ كان المنع من ذلك شديداً كما عرفت في مناهي النبيّ و أصحابه الكبار عن ذلك، و لم يدلّ على جوازه شيء من الأخبار و الآثار.

أمّا الآيات التي زعموها مبيحةً لذلك، فالاستدلال بها عقيم؛ لأنّها من باب «إيّاك أعني

[١] المصدر نفسه، ص٦٦-٦٧.

و اسمعي يا جارة». كان الخطاب في ظاهره مع النبيّ ﷺ غير أنّ المقصود غيره من المتشكّكين في أمر الرسالة، و ليسوا هم المسلمين أيضاً، بل الكفّار و المنافقون هم المقصودون، بدليل صدر الآية و ذيلها: «فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنزَلنا إِلَيكَ فَاسأَلِ الَّذِينَ يَقرَأُونَ الكِتابَ مِن قَبلِكَ لَقَد جاءَكَ الحَقُّ مِن رَبِّكَ فَلا تَكونَنَّ مِنَ المُمتَرِينَ»[1].

و العجب من الذهبيّ كيف يزعم أنّ هذه الآية جاءت رخصة للنبيّ في مراجعة أهل الكتاب؟! أو هل يشكّ النبيّ فيما أُنزل إليه؟! أو هل يمتري النبيّ في صدق رسالته كي يؤمر بالانتهاء منه؟!

لا شكّ أنّ المقصود غيره من الذين كانوا يتشكّكون في صدق رسالته، و لقد كان المرجع الوحيد الذي يمكن أُولئك المتشكّكين اللّجوء إليه هم «أهل الكتاب» الذين جاوروهم، و ليس النبيّ ﷺ بمقصود البتّة، و لا المسلمون المعتقدون بصحّة الرسالة.

و هكذا قوله تعالى: «فَاسأَلوا أَهلَ الذِّكرِ إِن كُنتُم لا تَعلَمونَ بِالبَيِّناتِ وَ الزُّبُرِ»[2] خطاب محض موجّه إلى العرب الجاهليّ.

* * *

أمّا حديث «حدّثوا عن بني إسرائيل و لا حرج» فهو كناية عن التوسّع في تفضيح شأنهم؛ حيث كلّ ما حدّثته عنهم من رذائل و فضائح فهو حقّ لا مرية فيه؛ حيث توسّعهم في ارتكاب الآثام و ركوبهم جميع القبائح المحتملة بشأنهم، كما جاء في المَثَل: «حَدِّث عن البحر و لا حرج» كناية عن التوسّع في الأمر، و أنّه كلّ ما قلتَ عنه فهو صحيح. و منه قولهم بشأن معن بن زائدة الشيبانيّ و كان من أجواد العرب: «حدِّث عن معن و لا حرج»، كناية عن توسّعه في المكرمات، فكلّ ما حدّثْتَ عنه من فضيلة، فهو صدق واقع[3]. فهذا تعبير كنائيّ عن مطلق التوسّع في أمر إن شيناً أو زيناً، و ليس المقصود التحدّث، في الرواية و النقل عنهم.

---

١. يونس (١٠): ٩٤.
٢. النحل (١٦): ٤٣.
٣. راجع: مجمع الأمثال للميدانيّ، ج ١، ص ٢٠٧، رقم ١١٠٣؛ فرائد الأدب للأب لويس معلوف.

و يتأيّد هذا المعنى، بما ورد في لفظ أحمد:

«تحدّثوا عن بني إسرائيل و لا حرج، فإنّكم لا تحدّثون عنهم بشيء إلّا و قد كان فيهم أعجب منه»[١]، أي كلّ ما حدّثت عنهم من فضيحة أو رذيلة شائلة، فهو صدق؛ لأنهم أ فضاحةً و أكثر رذالةً ممّا يُحتمل بشأنهم.

و في لفظه الآخر:

«حدّثوا عن بني إسرائيل و لا حرج، و حدّثوا عنّي و لا تكذبوا»[٢].

ففي هذه المقارنة بين التوسّع في الحديث عن بني إسرائيل، و التقيّد لدى الحديث رسول الله ﷺ دلالة واضحة على صدق الحديث عنهم مهما كان الحديث، أمّا التحدّث عن رسول الله ﷺ فيجب تحرّي الصدق، و لئلّا يكون كذباً عليه. فإنّه من كذ عليه متعمّداً فليتبوّأ مقعده من النار.

الرأي الحاسم

لا شكّ أنّ سبر التاريخ و دراسة أحوال الماضين عبرة و عظة لمن اعتبر به و أخذ متقلّباته متّعظاً له: فيم ربحوا و فيم رسبوا!

«ثُمَّ جَعَلناكُم خَلائِفَ فِي الأَرضِ مِن بَعدِهِم لِنَنظُرَ كَيفَ تَعمَلونَ»[٣].

و التاريخ كتاب العبر لمن أمعن و تدبّر، كما قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «أولم لكم في آثار الأوّلين مُزدَجَر، و في آبائكم الماضين تبصرة و مُعتَبَر؟!»[٤].

نعم، كانت دراسة التاريخ ضرورة تربويّة للأجيال، و ليؤخذ من تجارب الماض مشاعل وهّاجة لإنارة درب الباقين، فلا تتكرّر التجربة إذا كانت عنيفة، و لا يعيد التار بمرارتها الأُولى، و من جرّب المجرَّب حلّت به الندامة..

و هذا القرآن الكريم يوبّخ أهل العمه و الترف ممّن ساروا آباءهم من غير دراية..

١. مسند أحمد، ج ٣، ص ١٣.
٢. المصدر نفسه، ص ٥٦.
٣. يونس (١٠): ١٤.
٤. نهج البلاغة، الخطبة

تعالى ـ ناكراً عمههم هذا ـ:

«قالَ مُترَفوها إنّا وَجَدنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَ إنّا عَلَى آثارِهِم مُقتَدونَ»[١].

«قالوا بَل نَتَّبِعُ ما أَلفَينا عَلَيهِ آباءَنا أَوَلَو كانَ آباؤُهُم لا يَعقِلونَ شَيئاً و لا يَهتَدونَ»[٢].

و هكذا وبّخ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام هذا الإغفال و إعفاء تجارب السلف التي قاسها الآباء، قال موبّخاً هذه الشنعة: «و إنّما تسيرون في أثر بيّن و تتكلّمون برجع قول قد قال الرجال من قبلكم»[٣].

إذن فلتكن دراسة التاريخ موضع عظة و اعتبار، إذا كانت عن تدبّر و إمعان، و بعيدة عن كلّ تعصّب مقيت.. الأمر الذي أغفله أحفاد إسرائيل و أذنابهم..

و عليه فالقول الحاسم بشأن مراجعة كتابات السلف من يونان و رومان و مصر و اليهود و حتّى الفرس و الهنود، هو الجواز بل اللزوم، بعد كونها ضرورة لازدهار حضارة الأجيال.. غير أنّ هذه المراجعة لا بدّ أن تكون عن دراسة واعية و تحقيق و إمعان، بعيدة عن تعصّبات أعمى تقليديّة يمقتها العقل الرشيد.

و الأمر بشأن مراجعة الكتب الدينيّة القديمة ـ و قد أحاط بها هالة من خرافات بائدة تدعى للحذر و الاحتياط، و لا سيّما لو أُريد العثور على حقائق وحيانيّة احتضنتها تلكم الكتب و في طيّها الشيء الكثير.. فلا بدّ من التحرّي و التدقيق دون التسرّع و الاسترسال..

و نتيجة على ذلك كانت مراجعة كتب السلف ـ مهما كانت ـ ضرورة ثقافيّة و حياتيّة شاملة.. أمّا الاستسلام محضاً فلا، و أمّا التحرّي و التحقيق فنعم..

هذا هو القول الفصل في مراجعة كتب الأسلاف إذا كانت عن وعي و إمعان.. و الله من وراء القصد..

---

١. الزخرف (٤٣): ٢٣.

٢. البقرة (٢): ١٧٠.

٣. نهج البلاغة، الخطبة: ١٨٣.